

العشر المباركة

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١
وَلَيْالٍ عَشْرِ ۝٢
وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣
وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِر ۝٤
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ۝٥ ﴾

[سُورَةُ الْفَجْرِ: 1-5]

قَسَمٌ عَظِيمٌ طَوِيلٌ،

بَدَأَ بِالْفَجْرِ: مُتَطَلِّعِ الصَّابِرِينَ، وَأَنْبِلَاجِ الصُّبْحِ لِلوَاثِقِينَ، الْفَجْرِ الَّذِي يُعْقِبُ كُلَّ لَيْلٍ مَهْمًا طَالَ، وَهُوَ آتٍ لَا مَحَالَةَ؛ لِيُبَدِّدَ الظَّلَامَ وَيُنَشِّرَ النُّورَ.

وَتَنَى بِاللَّيَالِي الْعَشْرِ الْمُبَارَكَاتِ: عَشْرَ رَمَضَانَ الْأَوَاخِرِ، وَفِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَعَشْرَ ذِي الْحِجَّةِ الْأُولِ، وَفِيهَا مَنَاسِكُ الْحَجِّ. مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ، وَمَا يَعْدِلُ الْعَمَلَ فِيهَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْقَاتِ، كَمَا أَوْصَانَا قَائِدُنَا النَّبِيُّ الشَّاهِدُ الشَّهِيدُ ﷺ:

«مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ». يَعْنِي: أَيَّامَ الْعَشْرِ.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟

قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ».

وَهِيَ لَيَالٍ مَعْدُودَاتٌ، لَيْتَنَ ظَنَّ الظَّانُّ بِلَيْلِهَا الظُّنُونَ، فَهِيَ خَيْرٌ كُلِّهَا، وَالْفَجْرُ لَا مَحَالَةَ آتٍ لَا يَتَخَلَّفُ.

وَأَقْسَمَ بِالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَقِيلَ: هُمَا يَوْمُ النَّحْرِ وَيَوْمُ عَرَفَةَ مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ الْمُبَارَكَاتِ. فَيَوْمُ عَرَفَةَ ذُرُوءُ الاجْتِهَادِ وَالسَّعْيِ، وَيَتَوَجُّعُ بِيَوْمِ الْعِيدِ، يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ، يَوْمِ الْجَائِزَةِ.

وَيَخْتِمُ الْقَسَمَ بِاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِي: بِسِتَارِ اللَّيْلِ يَنْسِدُ بِهَدُوءٍ لَطِيفٍ عَلَى تِلْكَ الْمَشَاهِدِ،
مَشَاهِدَ كُتِبَتْ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ بِأَمْرِ مَالِكِ الْمَلِكِ الَّذِي لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ.

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ ذَاكَ قَسَمٌ وَاضِحٌ حَاسِمٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ، فَمَا هُوَ الْمُقَسَّمُ
عَلَيْهِ؟

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمِرْصَادٍ ﴾ وَوَضَّحَ ذَلِكَ بِالْأَمْثَلَةِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾
فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [سُورَةُ الْفَجْرِ: 6-13]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، وَمَا بَعَدَهَا مِنْ تَمُودَ وَفِرْعَوْنَ، وَكُلِّ مَنْ طَغَى فِي الْبِلَادِ
وَوَظَنَّ أَنَّ اللَّهَ غَافِلٌ عَنْهُ؟
اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ فِي هَذِهِ الْعَشْرِ قَدْ نَجَّى أَبَانَا إِسْمَاعِيلَ مِنَ الذَّبْحِ، وَفَدَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ،
وَفِيهَا أَتَمَّ نِعْمَتَهُ، وَنَزَلَتْ آيَةُ إِكْمَالِ الدِّينِ، وَكَانَتْ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ الْمُبَارَكَةِ.
فَرَبُّكَ بِالْمِرْصَادِ لِكُلِّ طَاغِيَةٍ وَمُتَكَبِّرٍ، وَهُوَ نَاصِرٌ دِينِهِ، وَمُعَزُّ جُنْدِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

إِنَّهَا عَشْرٌ قَلِيلَةٌ فِي عَدَدِهَا، عَظِيمَةٌ فِي أَثَرِهَا.

فَمِنَّا مَنْ يَرَاهَا خَاتِمَةَ لِعَامٍ، وَمِنَّا مَنْ يَرَاهَا فَجْرَ عَامٍ، وَلَكِنْ لَا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ أَنَّنَا نَتَّقَلَّبُ بَيْنَ
شَفْعٍ وَوَتْرٍ: شَفْعٌ تَالٍ لِغَيْرِهِ، وَوَتْرٌ يَنْفَرِدُ.

فَحَيَاتُنَا شَفْعٌ؛ فَكُلُّ يَوْمٍ تَالٍ لِسَابِقِهِ، وَذَاكَ نَفْسُهُ مُنْفَرِدٌ بِذَاتِهِ.

وَلَسَوْفَ يَأْتِي يَوْمٌ لَا شَفَاعَةَ فِيهِ، فَتَنْقَطِعُ فِيهِ تَتَابِعَاتُ الدُّنْيَا وَأَسْبَابُهَا، وَيُسَدَّلُ فِيهِ
السِّتَارُ عَنْ رِحْلَةِ الْحَيَاةِ، وَيَبْنِزُغُ فِيهِ فَجْرُ عَالَمٍ جَدِيدٍ.